الكذب بين الشعوب النامية: أسبابه وتداعياته

د. محمد عبد العزيز ربيع

في احد أهم المؤتمرات الفكرية التي شاركت بها، وكان ذلك في السويد في العام 1991 سئلت عن الأسباب التي تدعو الشعوب النامية عامة إلى الكذب. ولقد كان السؤال بمثابة مفاجأة كبيرة لي وتحد واضح لم أكن أتوقعه ولم أفكر به من قبل، وذلك بالرغم من أن الكذب ظاهرة واسعة الانتشار في مجتمعاتنا عامة. وحيث إن الكذب هو ظاهرة مجتمعية، وليس صفة شخصية، وجدت أن البحث عن الكذب وتداعياته يستوجب العودة إلى البيئة الثقافية السائدة والأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي يعيشها الناس وتشكل الإطار العام الذي يؤثر في سلوكياتهم، وطرق تفكيرهم ومواقفهم من الآخر، خاصة الدولة والأسرة والمجتمع. وفي الواقع، يعتبر الكذب عنصرا من عناصر الثقافة الشعبية والرسمية السائدة في الدول النامية عامة بمن فيها الدول العربية، وعادة واسعة الانتشار في تلك المجتمعات، مما جعلها لا تثير الكثير من ردود الفعل المناهضة، أو تقود البعض إلى اتخاذ مواقف تقوم على الاستهجان والاشمئزاز.

وبعد تفكير عميق في الحالة الاجتماعية والسياسية العربية، واستعراض الكثير من القيم الثقافية المتجذرة في الوعي الشعبي العربي، وجدت أن دواعي الكذب كثيرة، ولكن السبب الرئيسي واحد وبسيط، ولا يزيد كثيرا عن كونه بديهية واضحة للعيان. الكذب هو محاولة للتهرب من حقيقة مرة، أو توجه نحو الهروب من الواقع سيء، وذلك من خلال إنكار ما يحاول الإنسان التهرب منه، وإدعاء شيء في المقابل لا يعكس الواقع الذي يعيش فيه ويتعامل معه. وهذا يجعل الكذب موقفا غير أمين مع الغير يستهدف إنكار حدث ما أو موقف ما أو فعل ما، أو محاولة لاستغلال الغير وظروف طارئة غير عادية بطرق غير مشروعة لمنفعة ذاتية على حساب الغير من الناس أو المجتمع أو الحقيقة.

إن السبب الأهم والأكبر للكذب هو غياب الحرية واتجاه الدولة إلى خداع الناس وإخفاء الحقيقة عنهم واضطهادهم أحيانا. إذ عندما يتمتع الشعب بحرية سياسية واجتماعية وعقائدية ودينية، وتكون الدولة أهلا للثقة ومثلا حقيقيا للشعب وأمينة على مصالحه، فإن الشعب أفرادا ومجموعات وجماهير لا يجد أي سبب للكذب على الدولة أو على الغير، ولا يجد مبررا للاحتيال عليها والتلاعب بالقوانين المعمول بها. إن تمتع الشعب بالحرية وحصول الفرد على حقوقه وتوفر الوعي لديه بحقوقه وواجباته وحقوق الآخرين يجعل التفاعل بين الدولة والشعب صريحا ومباشرا ومؤسسا على العدل والتأثير المتبادل لخدمة مصالح مشتركة. أما حين تغيب الحرية، فإن الدولة تفقد ثقة الشعب بها، ويفقد الشعب احترام الدولة له وحرصها على مصالحه، مما يدفع الدولة إلى إعطاء الوعود الكاذبة، ويدفع الشعب بكافة قطاعاته من موظفين ورجال أعمال وعامة إلى استغلال الظروف والتحايل على الدولة والكذب عليها وعلى الغير للحصول على اكبر قدر من المنافع الذاتية.

شاركت قبل سنة ونصف تقريبا في مهرجان "خيمة الشعر" الذي تقيمه مدينة فاس في المغرب، حيث يلتقي الشعراء والشاعرات العرب للتبارز والتعارف وتبادل القصص الطريفة والنكات الظريفة. وفي حفل العشاء الرسمي تكريما للمشاركين وجدت نفسي والصديق الشاعر هارون هاشم رشيد نجلس على طاولة كبيرة كان حوالي نصف الجالسين عليها من السيدات. ولقد تخلل الحفل الغناء والطرب الأندلسي والرقصات الشعبية وإلقاء قصائد الغزل والمديح التي جسدت إخلاص الشعراء المشاركين في تلك الليلة للمقولة القديمة التي تقول: "إن أعذب الشعر أكذبه". ولقد تطرق الحديث حول الطاولة إلى العادات والتقاليد، ومنها تقاليد شهر رمضان والصيام في المغرب، حيث قلت إن تجربتي الحياتية في تلك البلاد، وكنت في حينه أستاذا في جامعة الأخوين في مدينة إفران القريبة من فاس، تجعلني

اشعر بأن الصيام في المغرب قد بات عرفا له طقوس مترسخة في اللاوعي الثقافي الشعبي أكثر منه واجبا دينيا. وهنا قالت إحدى السيدات، والتي كانت في منتصف الثلاثينات من العمر، إنها واحدة من خمس أخوات، وان جميع البنات لا يصمن على الإطلاق، لكن لو عرف والدهم بذلك، فإن من المؤكد، حسب إدعاء تلك المرأة، أن يصاب بسكتة قلبية أو بجلطة دماغية قاتلة. سألتها إذا كانت الأم تعرف بعدم صيام البنات في البيت، فكان الجواب بالإيجاب.

لماذا يكذب الأبناء والبنات على الأهل؟ ولماذا تتعاون الأمهات أحيانا في التغطية على الكذب؟ الجواب بسيط: غياب الحرية الاجتماعية وسيادة نظام أبوي اجتماعي تسلطي، وعدم اعتراف الجيل القديم بحقوق وعقلانية الجيل الجديد. وحين يكذب الابن على أبيه وتكذب البنت على أمها يصبح من السهل، بل من الطبيعي أن يكذب هؤلاء على المعلم والأستاذ والرئيس في العمل والصديق والدولة. وهكذا يصبح الكذب، بسبب غياب الحرية الاجتماعية جزءا من السلوك الاجتماعي المقبول والمتوقع والذي لا يثير ردود فعل غاضبة أو حتى مستنكرة.

قال لي إعلامي عربي بارز، وهو صديق عزيز اعتبره من اصدق وأنبل الناس الذين قابلتهم وعرفتهم عن قرب، انه اضطر إلى التواطؤ في حالة كذب لها علاقة بابنته الطالبة في مدرسة ثانوية. ذهبت الطالبة إلى مديرة المدرسة لاستئذانها في الغياب يوما عن الدراسة بسبب زواج أخيها، قالت المديرة إن حضور حفلات الزفاف ليس عذرا مقبولا، وان على الطالبة إذا أرادت التغيب عن المدرسة أن تحضر تقريرا طبيا بأنها كانت مريضة. ذهبت الطالبة إلى أبيها الذي ذهب بدوره إلى طبيب العائلة وقص عليه القصة، حيث قبل الطبيب التواطؤ والكذب وإصدار التقرير الطبي المطلوب. هكذا، وبسبب تعليمات جامدة، وأحيانا جاهلة، تعلمت الفتاة من مديرة مدرستها، والمفروض فيها أن تكون قدوة، إن سلوك طريق الكذب أفضل واسلم من سلوك طريق الصدق، وتمشياً مع العادات قبل الوالد أن يتواطأ في عملية كذب وتضليل واضحة، وقبل الطبيب مقابل اجر بسيط طبعا، أن يكذب هو الآخر، وان يجعل الكذب مسلكا مهنيا في مهنة من المفروض أن تكون أكثر المهن أخلاقية وإنسانية. وهكذا تساهم التقاليد والثقافة السائدة وغياب الحريات في جعل الكذب عادة ووسيلة لنشر الفساد، وفي جعل الفساد مدعاة للكذب.

هناك من يقول "هذه كذبة بيضاء"، لكن في الواقع لا توجد هناك كذبة بيضاء أو سوداء على الإطلاق. وكل كذبة هي تصرف سيء وخطير أحيانا ذا تكاليف باهظة جدا على الفرد والمجتمع من النواحي الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية والسياسية. وحين يصبح الكذب عادة مقبولة، يصبح الشك في الآخر وفي أقواله موقفاً مبرراً واحترازياً، وهذا بدوره يقضي على إمكانيات خلق ثقة اجتماعية في المجتمع. وكما تشير الدراسات، خاصة الأفكار التنموية الحديثة، فان وجود ثقة اجتماعية يجعل من السهل تكوين ما يسمى رأس مال اجتماعي، وان رأس المال هذا هو ضرورة أساسية من ضرورات التنمية، وهذا يعني باختصار انه لا يمكن حدوث تنمية مجتمعية حقيقية في غياب الثقة الاجتماعية، أي في غياب الصدق والمصداقية والحرية.

إن مجتمعنا الذي تعود على الكذب قادنا إلى الاستمتاع بأغنية فيروز التي تقول "تعَ ولا تجي، واكذب علي، الكذبة مش خطية". لكن الكذبة خطأ وخطيئة، وان تبريرها حتى لو كان بسبب الحب، شيء غير مقبول. هذا هو الموقف الأخلاقي الوحيد الذي لا بد من التمسك به مهما كانت الأعذار ملحة، ومهما كان الحب حقيقيا، ومهما كان الشوق حارقا.

professorrabie@yahoo.com

التاريخ : 2005/07/19